لون المطر

قصة يمانية بقلم محمد عبد الولي

ـ هل انت خائف ؟

ـ لا ، انني ارتجف ... ربما كان ذلك من البرد .. او ...

وصمت قليلا وراح يحملق في الفضاء امامه ، وعادت عيناه بعد ان اصطدمتا بقمم الجبال السوداء ، التي تحتضن الوادي العميق،النائم في صمت خرافي ، صمت خاله ابديا ، حتى وهو يردد صدى طلقات نارية بعيدة .

ـ انت جائع .. ؟

ـ ربما ، انني لم اذق طعم اكل حقيقي منذ ايام بعيدة .

ـ والخبـز ...؟

ـ لقد مللت منه ...

ـ ايه .. انكمغفل ، اتعرف .. انني اتذوق له طعما رائعا ؟ لقد مللت ما تسمونه اكلا حقيقيا . عشرون عاما ، ذقت فيها كل شيء ، من الثعابين الصينية حتى شربة الضفادع الافرنسية و ...

ـ هل ستبدأ في قصة ذلك من جديد .. ؟

ـ ولم .. لا ، قد يمضي الليل سريعا ، فلا نشعر بالسأم .. او الخـــوف ...

ـ او الجوع ... اليس كذلك .. ؟

ـ ربما ...

ودوت طلقة من بعيد رددها الاخدود ، فارتجف .

ـ الم اقل لك انك خائف ...

ـ ارجوك ، انني اشعر بالبرد فقط ،

ـ انظر الا تشعر بشيء جديد في هذه الليلة ؟

ـ ما هـو ؟ قالها بصوت خائف ...

ـ لقد امطرت السماء في النهار .

ـ اذن ؟

ـ الا تشعر بلون المطر الذي غسل كل شيء .. حتى لون القمر... واشار بيده الى القمر .

ـ الافضل ان تترك يدك على زناد بندقيتك ، ...

ـ اوه ... الا تنظر ما اروع كل شيء .. ؟ هل تخيلت عمرك منظرا ساحرا كهذا .. القمر يرسل ضوءه كشلال المطر الذي تساقط نهارا ، حتى النجوم تشبه انطلاقة القطرات من السحب . ان للمطـر لونا لا تشعر به ، الا عندما توده ، وتود تلك الاحياء التي يتساقط فيها، لم اكن اتاثر بالقمر او بالمطر وانا في الباخرة ، كان ذلك يذكرني بالقرية ، انت لا تعرف معنى البحر ، ان تقضي فيه اعواما واعواما ، تشويك الشمس ، ويلتهمك المساء بصمته ، كنت مستعدا لدفع حياتي ثمنا لمنظر كهذا ، الا تلاحظ فمم الجبال المقابلة ، انها واضحة كـــل الوضوح ، بكل تفاصيلها ، انظر هنالك ، سادفع حياتي ثمنا لهذا ،يـــا الهي ، كنت اظنها مجرد مغامرة ، ان احمل السلاح وامضي انشـــد اناشيد الثورة ، كتلك التي كنت اسمعها من عمال الموانىء في فرنسا ، عن الثورة ، ونابليون والمارسيليز ، ولكن هل رأوا شيئا رائعا كهذا ، القمر يكشف لك كل شيء ، نعم ، كل شيء ...

و .. ضغط على زناد بندقيته ، وردد الجبل الصدى ، وارتجـف الجسد الممدد بجانبه

ـ ما لك .. هل جننت ؟

ـ لا .. لا شيء ، القمر رائع ، لقد هوى ، الم تلاحظ شيئا ، لذلك انا اعبد القمر ، الضوء الخافت ، انه لا يعطيك كل الصورة ، الظلال تكفي ، لا ترتجف هكذا يا عزيزي ، انت لم تتعود البـرد فـي ـ عدن ـ ، هناك الشمس مضيئة دائما ، ولكنها تثير الضيق احيانا ، انت لم تر جبال الثلج ، عشرين عاما عملت فيها ملاحا ، رأيت كل البحار، وسمعت كل الحكايات ، الا ان اكون جنديا في صفوف الثورة ، تلـــك اخر اسطورة كنت اتصور حدوثها ، ولكنها حدثت .

ـ اسمع يا عزيزي ، لقد سمعت ذلك للمرة العشرين ، ولكنك لاول مرة تثبت لي بانك رام جيد ، لعله يتألم هناك ، او ـ لعله قد مات . لم الاحظ اي شيء ، لم اره الا بعد ان هوى ، وصمت قليلا ، ثم قال :

ـ ولكنك كنت تعيد علي كل ذلك من جديد ، والقمر هو القمر ، الذي يوجد في كل ليلة والنجم والامطار .. لا شيء الا انني غرقـت في الاوحال وانا اطارد ذلك الارنب اللعين ظهر اليوم ، لقد كنت ارسم في مخيلتي مائدة لذيذة لارنب مشوي ، ولكني لم اجد سوى الخبـــز اليـــابس !

وهبت رياح باردة كان لها صرير وهي تعبر شقوق الاخدود ، وردد الجبل صدى انسان يصرخ .. لم يجب عليه احد ، فمات الصدى ،وهوى انسان في القاع ، وارتطم حجر في الوادي العميق .

ـ اسمع ، اسمع .. هل تحس بشيء ؟

كان صوته خائفا ، وشد بقوة على البندقية .

ـ لا تخف ، انه صوت هدير المياه ، انه السيل القادم من الشمال، كانت الغيوم تغطي كل المنطقة منذ الصباح ، هذه المياه القادمة بصخب هي حصيلة الامطار التي هطلت ، الا تشعر بصوتها العذب ؟ يخيل الي كانه هدير جنود يزحفون الى الهدف ، دونما خوف ، يمزقون الصمت والجبن ، لقد تناسوا كل شيء ، حتى وجودهم ، انهم يندفعون ، كـــل واحد يتشجع لان اخرين بجانبه ، لو كان وحيدا .. لفر .. ولكنهـم جموع . اتدري ، انهم اكثر من شخص واحد ، اتسمع ارتطامهم بالجبال؟ وحتى تساقط الاحجار لا تهمهم ، انهم يندفعون ، كل واحد يشجـــع الاخرين ، دونما خوف ، دونما خوف ..

وكان السيل قد بلغ الوادي ، كانوا ممتدين على قمة الجبل . كان الماء يندفع بشدة وقد حمل امامه اشياء كثيرة لم يلاحظوا منها شيئا ، والماء يرتفع وينخفض بعنف ، وصوت ارتطامه يرتفع ويرتفع ، حتـــى ظنوا بانه سيلتهمهم . وضمهم صمت عميق والماء يمضي من تحتهم بعيدا، كثعبان اسطوري خرج فجأة من اعماق الجبال بعد سجن دام قرونا ،وراح يحطم كل شيء ..

ـ ونحن ايضا مثله ، لا ندري ما نلتهم امامنا ، ولكننا نمضي بعنف، ولكوننا مجموعة فنحن لا نشعر بالخوف ، لا يهمنا . ثم نرتطم ، انهـا البداية ، والبداية عنيفة دونما حدود ، كل شيء مباح وقانوني .. مـا دمنا في النهاية سنسقي حقولا وحقولا ، وما دمنا نعطي الصحراء لون اخضرار رائع ، بساطا من السعادة . ان اندفاعنا لن يستمر طويلا،سنهدأ بعد قليل ، ولكنا سنعطي الارض لونا اخر ، حياة اخرى .

وساد صمت . وكان القمر حنونا . والسيل قد مضى بعيدا .

ـ وماذا عنها ؟ هل كتبت لها شيئا ؟

ـ مزقت كل شيء .. مع من سأرسل رسائلي ؟ عـدن .. انها

بعيدة الان .. ما كان اغباني ! قلت لها انني ساكتب لها دائما ، لعلها تعتبرني الان بطلا ، وتنتظر مني ان احكي لها اساطير عن بطولاتي ، انها لن تصدق بانني ارتجف عند سماع طلق ناري ، وكأن الرصاص ينفرس في اعماقي ، انت اكبر مني ، لقد رأيت عوالم فسيحة ، ولعلك تسخر مني الان .. اما انا ...

وضحك بحزن .

ـ انا مجرد .. طفل .. لا يجيد سوى الحساب والكتابة و .. التحدث عن الوطنية بحماس اجوف ... الشيء الكبير في حياتي هو انني هنا . كنت مستعجلا في قراري هذا ، لو فكرت قليلا ، قليلا فقط، لما كنت هنا ـ انه الحماس ،انا الذي تحدث في الوطنية حتى مل الناس منه ، وها هي ذي الثورة ، كيف اقف بعيدا عنها ؟ كثيرون قالوا لي تطوع ، تطوع ، وتطوعت ، لم يمض على زواجي سوى اشهر ، لم افكر فيها ، قال لي والدها ، لا تخف ، .. انا هنا ، .. وقال الاصدقاء ، نحن هنا .. وها انذا ، ستخجل مني لو قلت لها ما هي الحرب ، وما هو الخوف ... اقول لنفسي ، انني اخاف من اجلها . ولكني كاذب ، ان طعم الحياة اشعر به هنا على لساني .. عند كل طلقة رصاص .

ودوى طلق ناري ، وارتجف ، وجف ريقه ..

ـ لقد هوى ، انهم ملاعين ، يعرفون ان القمر يكشف القمم فيتسلقون الصخور ، ويبحثون عن فجوات ، ولكنه هوى ، هل تشعر بشيء ؟

ـ لا ، لا .. انني خائف حتى الموت ..

ـ لا ، لا تقل ذلك ،استمر في حديثك ، كأن شيئا لم يحدث ...

ـ انت شخص اخر ، قاتلت اليوم ، وقاتلت من قبل ، وربما اكثر من مرة .

ضحك البحار قائلا : ـ ومع اكثر من جهة ، وبدون مبرر ..اما اليوم ، فانا احارب من اجل شيء .. ربما كان ذلك هو لون المطر ، في بلادنا . من قبل حاربت مع الايطاليين ، ثم عدت فحاربت مع الانجليز، ثم عملت مهربا للاسلحة ، ولكني لم اشعر باي لذة ، لم تكن الجبال ، ولا القمر او النجوم حتى ولا لون المطر في بلاد الناس تثيرني ، كنت احلم بهذا ، هذا الهواء البارد ، هذه القمم العارية ، هؤلاء السخفاء المتسللين ، صائدي الذهب والسلاح ، والغباء ، والحالمين بصيد الثورة ، حلمت بكل هؤلاء ، ولم اعرف بانني ، وتحت هذه الامطار،امطار بلادي ، سأكون انا صائدا ، ايه يا بني .. عرفت ارصفة موانيء الدنيا كلها ، نمت على حصاها ، تشردت في ازقة مارسيليا ، وكنت جائعا ، عملت اياما وليالي ، في مخازن الفحم ، وعند لهيب الافران ، وتحت سماء مثلجة ، عرفت معنى ان تحارب حربا ليست هي حربك ، صعب ان ترى وجوها جائعة ، و .. الان .. الا تريدني ان اصرخ فرحا هنا : « لكم انا سعيد .. لكم انا سعيد ؟! » اه .. ساقص كل هذا ، لكل الناس وفي كل مكان ،اه لكم كنت اخجل ان اقول لهم من اين انا ، اما الان ، فلن اخجل مطلقا ، بل ساقص عليهم قصتك ، ابن ـ عدن ـ النائم شبه عار وجائع ، فوق قمم الجبال ، في برد لم يعرف طعمه ، يتغذى بالخبز وحده ، ويحلم بارنب مشوي ، ويكتب رسائل خيالية لامرأة اكثر خيالا .

ـ انني لا اكذب ..

ـ لم اقل لك ذلك ، كل شيء هنا واقعي حتى اصبحت الواقعية لا تصدق !

ومضت عيونهما تبحث عن شيء امامها ، شيء غير الصمت ، او لون المطر ، شيء كانا يحسان بدبيب اقدامه يتقدم كنصل حاد يزرع الموت ، وكان الوادي من تحتهما يمضي بعيدا وقد فقد قوته الاسطورية، كان هادئا ، يمضي الى الجنوب ، لا احد فيهم يعرف من اين يبتدىء ولا اين ينتهي ، وان كانوا يعرفون تماما ما يريد ان يعطيه ، ويعرفون الناس الذين ينتظرونه بفارغ الصبر ، ويعرفون الارض التي تحتضنه وتقبله...

كان الدبيب يقترب ، ويقترب ، وكان لون القمر يصفر ..

ـ كان ذلك في ميناء ، كنت ايامها شابا ، في يدي وريقات خضراء وحمراء ، وفي اعماقي تتفجر رجولة ، لم اكن قد بعت ذراعي لاحد ، كنت اعمل بشرف ، بعرقي وجهدي ، وكنت فرحا لاني خلفت من ورائي اليمن ، لارى عالما جديدا ، كله اضواء وصراخ واناس ، اقل ما تصورته انهم نوع من الملائكة ، في تلك الليلة ، وفي ذلك الميناء ، فقدت رجولتي في احضان اول امرأة ، صادفتها ، كانت عندها طفلة ، اعطيتها بكرم كل اوراقي ، واخذت منها اكثر من رجولتي ، قالت لي اشياء كثيرة ، ولكني لم افهم منها شيئا ، كنت محموما ، لقد قضيت على الباخرة ستة اشهر، هل تعرف معنى الغربة ؟ لم اكن اعرفها ، ولكني لقيتها على سرير تلك المرأة في تلك الليلة ، قبلاتها كانت كاذبة ، لم اشعر بذلك الا في البحر ، عندما استعدت ذاكرتي ، وعرفت انني ابله ، ولكني لم انس تلك الميناء ، ظللت ارسل رسائلي اليها دون ان اعرف حتى عنوانها ، مجرد اسم الميناء ، كان ذلك يكفي لان احبها ، لقد نسيت حتى اسمها، وعدت اليها عدة مرات ، لكنها لم تكن هناك ، لانني عدت اليها بعد ثلاث سنوات ، ذلك هو الشيء الوحيد الذي سميته حبا . اعرف الان انها خدعتني ، اخذت كل شيء ، كل شيء ، ولكنها تركت في فمي مرارة الغربة . لقد زرعت هذه المرارة ، نعم زرعتها ... انت يا عزيزي تملك بيتا ، وحبا واصدقاء ، اه ... اما انا ، فلقد عدت الى اليمن بعد عشرين عاما ، فلم اجد احدا ، كانوا قد مضوا هم ايضا ، وجدت بعض القبور ، ولا شيء غير ذلك ، لكني كنت قد تغيرت بعض الشيء ... هممت بان اعود الى البحر ، الصديق الكبير الذي لم افقد ، والذي هو مستعد دائما لان يحتضنني ، في اية لحظة ، وها انت ذا ترى بانني هنا وليس في مكان اخر ، انها المصادفة وحدها ، اليس كذلك ؟مصادفة، او مجرد حظ تمنيته دائما ، لقد بعت نفسي لاكثر من جيش ، واكثر من شركة ، تعلمت كيف اعمل في باخرة ، وتعلمت كيف امسك ببندقية واقتل اناسا لا اعرفهم وليس بيني وبينهم اية عداوة ... اما اليوم فلا.. انني اعرف ، ولاول مرة لماذا انا هنا ، ولماذا تقع هذه البندقية في يدي ، قد لا اعرف من اقتل ، ولكني اعرف لماذا اقتل ، اتسمع ؟ انني اعرف ولاول مرة منذ عشرين عاما شيئا ما ... صور المقابر لا تزال امامي ، عدت فرحا احمل هدايا ونقودا ، ولكني لم اجد سوى مشاهد قبور امامي ، انني هنا ايضا اصنع مشاهد قبور جديدة ، وربما صنعت واحدا لنفسي .

قاطعه الصوت الاخر ، فجاة : ـ لا تقل ذلك ، ارجوك ..

ـ الصبح يقترب ، سنظل هنا معا ..

ـ نعم فنحن اخر من بقي ..

ـ لا احد يعرف ، قد يكون اخرون استطاعوا مثلنا ان يشقوا لهم طريقا وسط تلك الصخور ..

ـ ربمـــا ..

من بعيد ، لاح ضوء ، ولكن القمر لم يكن قد غاب .

وامامهما بعيدا ... بعيدا ، كانت خطوط تربط السماء بالارض كانت تلوح بعيدا ، وكان لها رائحة عذبة .

ـ انظر ، انه المطر ، الا ترى لونه ؟ لا استطيع ان اصفه ، ولكني احس به احساسا عجيبا ، حتى اني لاشعر بانني استطيع وصفه ..

ـ انني استطيع ان احس برائحته ، رائحة عطر ما .. عطر ما كنت ابيعه في الدكان الذي عملت به ..

اقترب الدبيب ، كانت الارض تخبر بذلك ، واحتواهما الضوء وارتفعت اصوات وكانت طلقات ، عديدة ، وثار غبار خفيف جولهما ، وردد الوادي صدى الطلقات ..

ـ لا تخف ، سنظل معا .

ـ وستحكي ذلك على الباخرة ..

ـ نعم ، ساقول لهم ما هو لون المطر في بلادي .

ـ وساقول لهم في ـ عدن ـ ما هو طعم البرد هنا .

احتوى الجبل هدير ، وكان الماء ينساب في الوادي،هادئا،والجبال تردد الصدى ، صدى الطلقات ، عنيفا ... عنيفا ...

محمد عبد الولي